تقديم الناشر

ربما لا تكون هناك شخصية تعرضت للهجوم المنهجى المستمر فى العالم الغربى مثل شخصية النبى محمد (ﷺ). فمنذ نهاية القرن الهجرى الأول، بدأ قسس أوروبا بتصويره تارة بأنه قس منحرف، وتارة بأنه هرطيق تلبَّسه الجن، أو أنه عبد للشهوات الجنسية، يعانى من صرع... أو كل ذلك، وما إلى ذلك.

وقالوا عن المسلمين: المحمدانيين، والذين يعبدون الوثن محمدًا.

فى القرن الحادى عشر، شنت أوروبا حروبها الصليبية، طوال ثلاثة قرون، لاستعادة الأراضى المقدسة من أيدى الكفار أتراكًا وعربًا، وبعد أن أسالوا دماء المسلمين واليهود، ودماءهم، غادروا المنطقة مخلفين صدعًا كبيرًا بين أوروبا الغربية المسيحية والشرق الأوسط المسلم. وسنكتفى فى هذا المقام الضيق بنقل بضعة نصوص من كتاب «تاريخ الحملات الصليبية» - للمؤرخ ستيفن رانسيمان، من منشورات جامعة أكسفورد، وترجمة نور الدين خليل:

- وتدفق الصليبيون عبر البوابتين، ولم يلقوا مقاومة تذكر، وشاركهم اليونانيون والأرمن فى قتل كل تركى يشاهدونه من الرجال والنساء.. - ص٣٦٢، الجزء الأول.
- وكان يحق له [الإمبراطور البيزنطى] أن يرى أنه من الأفضل للمسيحيين الأرثوذكس فى فلسطين أن يكونوا تحت حكم الفاطميين المتسامحين من أن يكونوا تحت حكم الفرنج. - ص٤١٤، الجزء الأول.
- ... واقتحموا المنازل والمساجد [فى القدس] وأخذو فى قتل كل من يقابلهم، الرجال والنساء والأطفال، واستمرت المذبحة طوال ما بعد الظهر وخلال الليل كله... وفى باكورة الصباح التالى، اقتحمت جماعة من الصليبيين المسجد، وقتلوا كل من فيه.

وهرب يهود القدس إلى كنيسهم الرئيسى، لكن الصليبيين اعتبروا أنهم قدموا المساعدة إلى المسلمين فلم يظهروا أية رحمة، وأشعلوا النيران فى المبنى، واحترق اليهود كلهم داخله. ـ ص٤٣٤، ٤٣٥، الجزء الأول.

- [وفى يافا]: . . . . . هرب من كان قادراً على الفرار من المسلمين واليهود، لكن المذبحة قضت على أغلب السكان. ـ ص٤٧٥، الجزء الأول.
- [بل أنه] فى معرة النعمان. . . . أكل جيش الصليبيين لحوم البشر، ولم ينكر ذلك إلا صليبى واحد! . ـ ص٣٩٨، الجزء الأول.

عاد الصليبيون وقد تعلموا الكثير من الشرق(*)، ولكن مع ذلك أنكر التيار الرئيسى فى أوروبا ذلك، واستمر الإنكار حتى اليوم.

وتجسد «الكوميديا الإلهية» لدانتى المفارقات الجديرة بالذكر فى التباين الهائل فى التفاعل بين الشرق الأوسط وأوروبا. دانتى اليجيرى هو شاعر إيطاليا وأوروبا الملحمى، وأحد آباء اللغة الإيطالية الثلاثة، عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، والربع الأول من الرابع عشر.

يقول عنه حسن عثمان، فى ترجمة كتابه «الكوميديا الإلهية» الذى نشرته دار المعارف عدة طبعات فى ثلاثة أجزاء:

أحد عظماء الرجال فى تاريخ البشرية، ورائد عصر النهضة.

ويقول الدكتور حسين محمود عن كتاب دانتى:

ربما لم يترجم كتاب إلى اللغات الأجنبية ـ باستثناء الكتاب المقدس ـ بعدد ترجمات الكوميديا الإلهية. فقد بلغت فى لغات بعينها عشرات المرات، وترجم إلى الإنجليزية ما يقرب من خمسين ترجمة.

(*) هناك كتب كثيرة تناولت ذلك، منها: «شمس العرب تسطع على الغرب»، «الله ليس كذلك»، «الجذور الشرقية فى الحضارة الغربية».

الكتاب عبارة عن أناشيد عن الجحيم، والمُطَهِّر، والفردوس، تزيد عن المائة بقليل، ذيَّل كاتبنا المبهور بدانتى - حسن عثمان - النشيد الثامن والعشرين من الجحيم بعبارة اعتذار رقيقة :

ولقد حذفت من هذه الأنشودة أبياتًا وجدتها غير جديرة بالترجمة .

ماذا تقول تلك الأبيات - غير الجديرة بالترجمة - التى تتكلم عن الوادى التاسع الرهيب فى قاع جهنم؟ :

... ...

مشقوقًا من الذقن إلى حيثما يُصدر الريح
من بين ساقيه تتدلى أحشاؤه
ويظهر القلب وتظهر أمعاؤه
أى براز يصنعه ما يبتلعه
وبينما أرى كل شىء فيه أنذَهِل
ينظر لى وقد شق بيده صدره
قائلاً أنظر كيف اشق نفسى
انظر كيف تشوه محمد
وأمامه أرى عليًا وقد راح يبكى
مفلوق الوجه من الذقن إلى الشعر
وكل من ترى ها هنا
هم زارعو العار والشقاق [ترجمة الدكتور حسين محمود]

... ...

تبقى عن دانتى كلمة أخيرة ... أن دانتى استوحى فكرة «الكوميديا الإلهية» من «مصادر عربية ... كما استوحت أوروبا نهضتها من الشرق، وكما استمدت هيمنتها من مناجم الذهب والفضة وبقية خيرات أمريكا، ومن تسخير سكان أمريكا الأصليين واسترقاق الأفارقة وتسخيرهم للعمل هناك، حتى الموت، ثم تنكرت لذلك .

obeikandl.com

بنت أوروبا شخصيتها على رفض الآخر، واستباحته، وإذا لزم استئصاله متى تمكنت من ذلك. . . والأمثلة كثيرة من معازل السكان الأصليين، فى استراليا فى أقصى الشرق، إلى الشرق الأوسط وما استرقته فى إفريقيا وعزلته فى جنوبها، وإلى السكان الأصليين لأمريكا فى أقصى الغرب. . .

وعندما تمكنت أوروبا من التكنولوچيا ـ وخاصة الحربية ـ لم تتوان فى الخروج فى حملات عسكرية لاستنزاف العالم شرقه وغربه وجنوبه، بما اصطلح على تسميته الاستعمار.

واحتاج ذلك الاستنزاف البربرى إلى تبرير أيديولوچى أمام شعوبها، سواء كانت مسيحية، تتبع المسيح صاحب دعوة السلام والمحبة والزهد فى الماديات ومتع الدنيا. . . ، أو علمانية، تتبع الأفكار التنويرية وحقوق الإنسان، وداروينية البقاء للأصلح، وما إلى ذلك(*). كذلك احتاج ذلك الاستنزاف لدراسة ضحاياه. . . من ناحية الجغرافيا، ومن ناحية الثقافة والفكر، خاصة ما قد يشكل لدى الشعوب عائقًا ضد ذلك الاستنزاف. . . فاشتدت حركات الاستكشاف، والتبشير، والاستشراق. . . الذى قام بالترويج لحمل الرجل الأبيض، ورسالته لنشر الحضارة والقيم، والأخذ بيد العالم المتخلف. . . فصار مؤسسة غربية متزايدة الفتك والشراسة تضع الأيديولوچيا والأساس الأخلاقى والفكرى للعدوان على الغير. . . على أرضه. . وعمله. . . وثقافته. . . وهويته. . . وإذا لزم استئصاله، مع النادر من الاستثناءات. تلك المؤسسة التى استغرقت سنوات من الدراسة لدى إدوارد سعيد، حتى استطاع أن يكتب عنها «الاستشراق ـ المفاهيم الغربية للشرق»:

- أمامنا ثلاثة عوامل، جعلت من تفهم العرب والإسلام حتى فى أبسط الصور الممكنة مسألة مشبعة بالدلالات السياسية عالية النبرة. **الأول** هو تاريخ التعصب الشائع فى الغرب ضد العرب والإسلام، وهذا الذى يتجلى مباشرة من تاريخ الاستشراق، **والثانى** هو الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية وتأثير ذلك الصراع فى اليهود الأمريكيين وفى

(*) أرشح للقراءة كتب «الكتاب المقدس والاستعمار» للقس مايك پريور، و«تاريخ نهاية العالم» لچوناثان كيرش، و«الشعب المختار: الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا» لكليفورد لونجلى، وكذلك «الجذور الشرقية للحضارة الغربية» لچون هوبسون.

الثقافة المتحررة [الليبرالية] وفى السكان بصفة عامة، **والثالث** هو الانعدام شبه التام لأى موقف ثقافى يتيح للفرد التعاطف مع العرب أو الإسلام أو مناقشة أيهما مناقشة غير انفعالية .ـ ص٧٨ .

- هذا هو محمد، الدجال الشهير، صاحب ومؤسس البدعة التى اتخذت اسم الدين، وهى التى ندعوها المحمدية . وقد نسب مفسرو القرآن وغيرهم من علماء الشريعة الإسلامية أو المحمدية إلى هذا النبى الزائف جميع الصفات الحميدة التى نسبها الآريوسيون والبوليون وغيرهم من المارقين إلى يسوع المسيح، مع تجريده من ألوهيته .ـ ص١٣٢ . [من معجم ديربيلو بالفرنسية بعنوان ببليوتيك أورينتال، ونشر عام ١٦٩٧م. وظل الببليوتيك المرجع المعتمد فى أوروبا عن الإسلام حتى أوائل القرن التاسع عشر . ـ ص١٢٩، ١٣٠].
- ويشير ناپوليون إلى ڤولنى فى تأملاته، فقال: إنَّ ڤولنى كان يعتقد بوجود ثلاثة حواجز أمام الهيمنة الفرنسية على الشرق [تستلزم] ثلاث حروب: **الأولى** ضد إنجلترا، **والثانية** ضد الباب العالى العثمانى، **والثالثة** ـ وهى أصعبها ـ ضد المسلمين . ـ ص ١٥٤ .
- . . . وأخيرًا، لأن الاستشراق كان قد اكتمل تحوله الذاتى من خطاب علمى إلى مؤسسة إمپريالية .ـ ص١٧٣ .
- . . . ففى الرواية التى كتبها السير والتر سكوت بعنوان الطلسم (١٨٢٥م)، يكتشف المسيحى أن عدوه المسلم ليس بالسوء الذى تصوره، ومع ذلك يقول له:

  كنت أعتقد حقًا . . . أن سلالتكم العمياء تنحدر من صلب الشيطان الخبيث، ولولا مساعدته لكم ما استطعتم يومًا أن تسيطروا على هذه الأرض المباركة، أرض فلسطين، وتصدوا عنها هذا العدد الهائل من جنود الله البواسل [الصليبيين] . . لكن ما أراه غريبًا ليس انحدارك من صلب رب الشر، بل تفاخرك بذلك . ـ ص ١٨١، ١٨٢ .

- وقد كان معنى هذا الواقع العملى أنه حين يقوم الشرقيون بالكفاح ضد

الاحتلال الاستعمارى، فعليك أن تقول إن الشرقيين لم يفهموا يومًا ما معنى الحكم الذاتى بالصورة التى نفهمه بها «نحن». وإذا عارض بعض الشرقيين التمييز العنصرى، فقل: «إنهم جميعًا شرقيون فى أعماقهم» ولا تنطبق عليهم مفاهيم المصالح الطبقية والظروف السياسية والعوامل الاقتصادية إطلاقًا. أو قل مع برنارد لويس: إن الفلسطينيين العرب إذا عارضوا الاستيطان والاحتلال الإسرائيلى لأراضيهم، فإن هذا لا يعدو كونه «عودة الإسلام»، أو كما يقول تعريف مستشرق معاصر شهير: إنه معارضة إسلامية للشعوب غير الإسلامية. ـ ص ١٩٠.

- وهكذا يولد الشرق من جديد، فى الرؤية التى تمثل ذروة حديث لامارتين، فى إطار حق أوروبا فى السيطرة عليه، قائلاً:

والهيمنة من هذا اللون، وفقًا لهذا التعريف وطبقًا لتكريسها وتخصيصها باعتبارها حقًا أوروبيًا، تكمن بصفة أساسية فى الحق فى احتلال منطقة ما، وكذلك السواحل، من أجل تأسيس مدن حرة فيها، أو مستعمرات أوروبية، أو موانئ تجارية تمر عليها السفن بانتظام. . . ـ ص ٢٨٨.

- وهكذا، فمن الصحيح ـ إذن ـ أن كل أوروبى كان عنصريًا، وإمبرياليًا، ومعتنقًا للمركزية العرقية بصورة شبه كاملة. ـ ص ٣٢٠، ٣٢١.
- كان المستشرقون يعملون، ويقدمون الوعود، ويوصون باتخاذ سياسات عامة بناء على تلك التعميمات. . . إذ كانوا يرون أن القضية الرئيسية تنحصر فى الحفاظ على سيطرة الرجل الأبيض على الشرق والإسلام. ـ ص ٣٦٩.
- فالاستشراق يحكم السياسات الإسرائيلية تجاه العرب على نحو ما يثبته إثباتًا قاطعًا تقرير كونيج الذى نُشر أخيرًا، ونفهم منه أن العرب إما أخيار (وهم الذين يفعلون ما يؤمرون) أو أشرار (وهم من يعصون الأوامر ولذلك فهم إرهابيون). ـ ص ٤٦٧.

ويختم إدوارد سعيد كتابه قائلاً:

- وإذا كان لمعرفة الاستشراق أى معنى، فإنه يكمن فى كونه تذكيرًا بالتدهور المُغْوى للمعرفة، أية معرفة، فى أى زمان. وربما يصدق هذا على العصر

الحاضر أكثر مما يصدق على الماضى .. ص ٤٩٧ [الاستشراق: (إدوارد سعيد) ترجمة محمد عنانى، سطور].

ومن الأفكار المهمة ما أورده إدوارد سعيد فى كتابه على لسان مورتيمر جريفز الذى قال:

- . . محاولة الحصول على المطبوعات ذات الشأن بجميع اللغات المهتمة فى الشرق الأدنى والمنشورة منذ عام ١٩٠٠م. وهذه محاولة يجب على الكونجرس [الأمريكى] فى بلدنا الإقرار بها باعتبارها من تدابير أمننا القومى. . ص ٤٥٠ .

ويصدق نفس الأمر، وبدرجة أخطر، على أمننا نحن القومى، فالحرب تبدأ فى العقول والقلوب قبل أن تنشب فى ساحات القتال، وقد راكمت مؤسسات التبشير والاستشراق، والتعليم والإعلام، فى ذاكرة العالم الغربى الجماعية صوراً نمطية عن العربى والمسلم، تبرر الاستعمار القديم، بكل صوره الدموية، والاستعمار الجديد، بكل صوره المالية والثقافية والقانونية، وبما فى ذلك صور الاستعمار القديم.

فما يقال للرأى العام العالمى، والغربى، وبصفة خاصة الأمريكى، هو خطر حقيقى علينا، فحكومات الغرب، والولايات المتحدة بصفة خاصة، لا تستطيع العدوان على شعب إلا بعد أن تقوم ـ بوسائل إعلامها من قنوات إذاعية وتلفزيونية، إلى أفلام وكتب وجرائد ومجلات، وهى خليط من المؤسسات الرأسمالية والإمبريالية والمحافظة ـ سياسيّا ودينيّا ـ والعلمانية ـ أضف لذلك الكنائس اليمينية فى حالة ما يكون ذلك العدو هو العرب والمسلمين ـ بشيطنة ذلك العدو، وتمثيله بهتلر أو موسولينى ـ وهما من نتاج حضارة أوروبا المسيحية والعلمانية والتنويرية ـ الذى يهدد الحضارة الغربية، ويوشك على شن الحرب عليها.

ليست الرسومات المسيئة للنبى محمد (ﷺ) أمراً جديداً فى الإعلام الغربى، وكذلك ليست بالأمر العفوى الخارج عن السياق والمنهج، وماهى إلا استكمال لما بدأه قساوسة القرن الثامن الميلادى، وأشعار دانتى، وأعمال مؤسسة الاستشراق الأوروبية.

أما الدعاة النجوم فى الولايات المتحدة [دعاة شبكات التلفزيون والكنائس الهائلة «Mega Churches»، والذين يتابع الواحد منهم عشرات الملايين] فقد أعلنوا على العالم:

● الإسلام شر، وشرير.

فرانكلين جراهام (الصغير)، الذى قام بالدعاء فى حفل تنصيب الرئيس جورج بوش.

● محمد لص، قاطع طريق، متعصب.

بات روبرتسون صاحب الإمبراطورية الإعلامية لليمين المسيحى.

● محمد، إرهابى.

چيرى فالويل، زعيم الأغلبية الأخلاقية، والذى نصح نتنياهو عندما كان رئيسًا لوزراء إسرائيل قائلاً: لا تتخل عن شبر واحد من أرض إسرائيل التوراتية. وحذر الرئيس بوش قبل انتخابات ٢٠٠٤م قائلاً: لو تخليت عن شبر واحد من أرض إسرائيل التوراتية، فلن ينتخبك أحد من الإيڤانجليكيين [٣٠ ـ ٤٠٪ من المسيحيين فى الولايات المتحدة]. وقد مات القس هذا العام.

ولكل من هؤلاء الدعاة موقعه على النت لمن أراد الاستزادة.

أما القس جيرى ڤاينس، الرئيس السابق للمعمدانيين الجنوبيين [الذى يضم ١٦ مليون عضو] فقال فى مؤتمرهم:

محمد تملكه جن، وهو محب للأطفال...

الله ليس يهوه [الله بالعبرية فى الكتاب المقدس]... يهوه لا يحولك إلى إرهابى لتقتل آلاف الناس.

وامتدح الرئيس بوش ـ فى اليوم التالى مباشرة ـ المعمدانيين على تسامحهم الدينى.

http://www.washingtonpost.com.proxy1.lib.uwo.ca:2048.The Washington Post

وقال جون أشكروفت، النائب العام السابق لجورج بوش: إلهنا أرسل لنا ابنه ليموت فى سبيلنا... أما إله المسلمين، فهو يطلب منهم أن يرسلوا أبناءهم ليموتوا فى سبيله(*).

(*) ويبدو أن السيد أشكروفت راسب فى مادة التاريخ الأمريكى... فقد أرسلت الولايات المتحدة قواتها لتحارب ـ معتدية خارج أراضيها ـ حوالى ٢٠٠ مرة منذ عام ١٩٤٥م، أى بواقع ٣- ٤ مرات/ السنة ـ جورج ڤيدال فى كتابه: حرب مستمرة من أجل سلام مستمر. ـ ص ٢٢- ٤١. بل إنه حتى لم يقرأ =

ما سبق هو عن التيار الرئيسى والتقليدى فى عالم الغرب، سواء العلمانى ـ وهو الغالب فى أوروبا ـ أو القائم على الثقافة والقيم اليهومسيحية ـ وهو الغالب فى الولايات المتحدة.

ولكن هناك أصوات تخالف ذلك، قليلة ولكنها يمكن أن تزيد، تعمل على تغيير ذلك الفكر ـ ومن ثم ما يترتب عليه من عمل.

ففى الولايات المتحدة، أنشأ ديبلوماسيون سابقون فى الشرق الأوسط مؤسسة باسم: «If Americans know» تحاول تصحيح رؤية الشعب الأمريكى عن الشرق الأوسط، وما يحدث فيه. و أصدر الرئيس الأسبق كارتر كتابًا هامًا يسبح به ضد التيار اسمه «Palestine, Peace Not Apartheid»، كذلك أعد أستاذا العلوم السياسية فى جامعة هارفارد ـ التى يقود خريجوها العالم ـ وجامعة شيكاجو، ستيفن. إم. وات، وجون. جيه. ميرشايمر، دراسة عن «اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة» مفادها أن ضغوط ذلك اللوبى جعلت سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ليست فى مصلحتها، ولكن فى مصلحة إسرائيل.

بل هناك الفتاة الأمريكية اليهودية راشيل كورى التى كانت فى مقتبل العمر، وذهبت إلى غزة لتعرف ماذا يحدث، فلم تتوان عن استنكار السياسة الإسرائيلية، ووقفت وحدها بجسدها الصغير وروحها ـ التى استشرفت العدل الإلهى فتسامت ـ أمام بلدوزر إسرائيلى يهم بهدم منزل فلسطينىٍّ ـ حتى لحقت ببارئها.

لدينا الكثير الذى علينا عمله لتصحيح ـ أنفسنا أولاً ـ وثانيًا تصحيح تلك الصور الأيديولوجية النمطية الخبيثة عن العرب والمسلمين، وحتى ندافع عن أمننا القومى وذواتنا.

= ما قاله الأب المؤسس وثانى رؤساء الولايات المتحدة جون آدمز فى رسالة له بتاريخ ١٨١٦م:
الانحراف [الذى أصاب المسيحية واليهودية] جعل من الديانتين اليهودية والمسيحية أكثر الديانات دموية على الإطلاق ـ الدين والسياسة فى الولايات المتحدة. جـ١، ص٨٢.
بالطبع لم يكن آدمز يعرف حجم الدماء التى أسالتها المسيحية واليهودية فى القرنين التاليين لرسالته.

ولكن حتى نبدأ العمل، يجب أن نبرأ من تأثير التيار الرئيسى فى الإعلام الغربى، ومن الإذعان الاختيارى لضغوط السياسة الغربية.

فنحن الضحية وليس المعتدى. . . . الآن، ومن قبل. . . . وأن نعرف أن ثقافة الغرب ـ فى معظمها ـ تئن من التعصب والعنف والعدوان ورفض الآخر. . . وإذا لزم استئصاله، كذلك يئن ـ معظم ـ تاريخه وحاضره.

وأولئك الغافلون (أو الغانمون) الذين سارعوا بتغيير مناهج المدارس وخاضوا فيما لا يعرفون من آيات الجهاد فى القرآن، وما إلى ذلك، لو فتحوا العهد القديم، سفر العدد وسفر يشوع على سبيل المثال، لوجدوا الأمر الإلهى بقتل كل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وحتى البهائم، أمرًا متكررًا عدة مرات. . . وبدون سبب ولا رادع ولا مانع. . . ولوجدوا فى سفر العدد، الإصحاح ٣١ الآيتين ١٧، ١٨ أمر النبى موسى لقواده بأن:

اقتلوا كل ذكر من الأطفال.

واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً(*).

ويمكنهم أيضًا أن يقرءوا المهر الذى طلبه الملك شاول من النبى داود. . . مائة غلفة من غلف الفلسطينيين. . . فقتل النبى داود مائتين بدلاً من مائة ـ وقطع أعضاء ذكورتهم، وأهداها للملك مهرًا لابنته: . . . فقال شاول لهم: «هذا ما تقولونه لداود: إن الملك لا يطمع فى مهر، بل فى مئة غلفة من غلف الفلسطينيين، انتقامًا من أعداء الملك». قال هذا ظنًا منه أن يوقع داود فى أسر الفلسطينيين. فأبلغ عبيد شاول داود بمطلب الملك، فراقه الأمر، ولا سيما فكرة مصاهرة الملك. وقبل أن تنتهى المهلة المعطاة له، انطلق مع رجاله وقتل مئتى رجل من الفلسطينيين، وأتى بغلفهم وقدمها كاملة لتكون مهرًا لمصاهرة الملك. فزوجه شاول عندئذ من ابنته ميكال ـ سفر صموئيل الأول الإصحاح ١٨: زواج داود من ميكال: الآيات ٢٥- ٢٧.

ولو تصفحنا العهد الجديد، لوجدنا كل الأناجيل تدعو للسلام والمحبة واجتناب الماديات الدنيوية، ولكن للأسف الشديد، بنى العالم المسيحى الغربى من سفر رؤيا

(*) ومن مثل هذا النص، يقوم التبرير الأيديولوچى لقتل إسرائيل أسراها من الجنود المصريين والعرب.

يوحنا، وهو حلم ملئ بالرموز، أسطورة عن نهاية العالم وضرورة قيام حرب دموية فى هرمجدون - رأى مفسروها من اليمين المسيحى فى أمريكا أنها حرب نووية يموت فيها مئات الملايين - حتى يهبط المسيح ثانيًا ليعيش العالم المسيحى فى سلام، على دماء ثلث البشرية، فى أحد التأويلات الغربية.

ولم نسمع عن أحد فى الشرق يحذر من ذلك أو يطالب بتغييره(*)!

لقد تنبهت كارين أرمسترونج فى أوائل التسعينيات لخطورة ما يروجه الإعلام الغربى على نبى الإسلام ومن ثم على المسلمين، ويبدو أنها خشت أن يكون ذلك تمهيدًا لمغامرة عسكرية جديدة.. فوضعت كتابها الأول عن شخصية النبى محمد (ﷺ).

وبعد أحداث ١١/ ٩ المأساوية، رأت أنها فى حاجة لعمل كتاب آخر، لما يبدو أنها خشته من شرور جديدة بين الغرب المسيحى واليهودى والعلمانى، والإسلام. جاء كتابها الجديد «محمد نبى لزماننا» ليذكر الجميع، فى الشرق وفى الغرب، بأنهم فى حاجة لتفكير جديد غير تقليدى، ليتعايشوا معًا، ورأت فى شخصية نبى الإسلام نموذجًا يهدى العالم فى زماننا للحلول المبتكرة التى يستلزمها الوصول للسلام.

وكما ساهمت أرمسترونج بما تستطيعه، وهو الكتابة، أليس لدينا نحن ما نستطيعه؟

بالطبع لن نبدأ العمل بدون إيمان بهويتنا وبقضيتنا...

ولن نستطيع ذلك ونحن نعيش فى ظلمات الجهل المركب والنفاق والانتهازية، فى صحرائنا الفكرية الجرداء، الخاوية والمستبدة، والتى تفكك إرادتنا وأوصالنا.

عادل المعلم

ديسمبر ٢٠٠٧م

(*) صدرت عشرات الكتب فى الولايات المتحدة عن حرب نهاية الزمان «هرمجدون» بإجمالى توزيع يزيد على مائة مليون نسخة، وصدر منها طبعات للناشئين، وبالطبع أفلام سينمائية.

obeikandl.com

مقدمة

تاريخ التقاليد الدينية هو حوار مستمر بين الحقيقة السامية والأحداث الجارية فى عالم الأرض. يدقق المخلصون فى الماضى المقدس بحثًا عن الدروس التى تخاطب أحوالهم فى حياتهم اليومية. لكل دين - فى معظم الأديان - شخصية رئيسية تعبر عن مثاليات الإيمان فى صورة بشرية.

يتأمل البوذيون فى صفاء بوذا فى حالة النيرڤانا(*) الحقيقة العليا التى يتطلعون إليها، بينما يرى المسيحيون فى المسيح الحضور المقدس كقوة للخير والحب فى العالم. تسطع هذه الشخصيات النموذجية بالنور على الأحوال المظلمة فى عالمنا الخطاء - التى يبحث معظمنا الخلاص منها - وتخبرنا ما يمكن للإنسان أن يكون عليه.

لقد فهم المسلمون ذلك دائمًا، حيث كلفهم القرآن برسالة: هى بناء مجتمع عادل وكريم، يعامل كل فرد باحترام، لذلك كان الصلاح السياسى للمجتمع المسلم، وما زال، أمرًا ذا أهمية عليا.

مثاليات أى دين، يصعب - بما يقترب من الاستحالة - تحقيقها، ولكن بعد كل إخفاق، حاول المسلمون النهوض والبداية من جديد. وتشهد الشعائر والفلسفات والمذاهب والنصوص الدينية والأضرحة العديدة، على النقد الذاتى المهموم والمتكرر فى معالجة الأحداث السياسية فى المجتمع الإسلامى.

جسدت حياة النبى (ﷺ) (٥٣ ق. هـ إلى ١١ هـ / ٥٧٠ إلى ٦٣٢م) المثالية الإسلامية قديمًا وحديثًا، حيث تكشف سيرته ما غمض من تدبير الله لشئون العالم، وتصور التسليم الكامل لله، والذى يجب على كل إنسان السعى لتحقيقه. جاهد

(*) النيرڤانا: السعادة القصوى التى تتخطى الألم، والتى تلتمسها البوذية فى قتل شهوات النفس.

المسلمون منذ البداية، خلال حياة النبى (ﷺ)، لفهم حياته وتطبيقها على حياتهم. بعد أكثر قليلا من مائة سنة من وفاته، حين أخذ الإسلام فى الانتشار فى أقاليم جديدة واكتساب مسلمين جدد، بدأ علماء المسلمين فى جمع أقوال وأفعال النبى محمد (ﷺ) وتقريراته، أى الحديث والسنة، التى تبين أساس الشريعة الإسلامية، وتعلم المسلمين طريقة حياة النبى (ﷺ): كيف يتكلم، ويأكل، ويحب، ويغتسل، ويتعبد، وكيف مارس أدق تفاصيل حياته على الأرض، على أمل أن يصلوا مثله إلى التسليم الكامل لله.

تقريبًافى القرنين الثامن والتاسع ميلاديًا، أى الثانى والثالث هجريًا، بدأت كتابة التاريخ الإسلامى على أيدى كل من: محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م)، محمد بن عمر الواقدى (١٣٠ ـ ٢٠٧هـ/ ٧٤٧ ـ ٨٢٢م)، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م). لم يعتمد هؤلاء المؤرخون على ذاكراتهم وانطباعاتهم فقط، ولكنهم حاولوا بجدية هيكلة بناء تاريخى، ورجعوا إلى وثائق وكتابات سابقة فى رواياتهم، وأسندوا الروايات الشفوية إلى مصادرها الأصلية. وبرغم توقيرهم لمحمد (ﷺ) كرجل الله، إلا أنهم لم يتجنبوا النقد والتمحيص فى عملهم، ولحد كبير، كنتيجة لمجهوداتهم، أصبحنا نعرف عن محمد (ﷺ) أكثر مما نعرف عن مؤسسى الديانات الرئيسية، وأصبحت هذا المصادر الأولى لا غنى عنها لأى كاتب لسيرة النبى (ﷺ)، وسيتم الرجوع إليها تكرارًا فى هذا الكتاب.

قد لا ترضى أعمال المؤرخين الأوائل مؤرخى اليوم، فقد كانوا رجال عصرهم، وغالبًا ما تضمنت رواياتهم معجزات وأساطير يمكن تأويلها بطريقة مختلفة اليوم. ولكنهم كانوا مدركين لتعقيد موادهم، ولم يكونوا متحيزين لنظرية أو قراءة للأحداث على حساب أخرى. وكانوا أحيانا يضعون روايتين مختلفتين تمامًا بجانب بعضهما البعض، ويضعون لكل منهما أسانيدها، حتى يمكن للقراء تكوين آرائهم الشخصية.

أحيانًا لم يسلموا بصحة الروايات المتاحة لهم، وحاولوا رواية قصة نبيهم (ﷺ) بأعلى ما فى وسعهم من أمانة وصحة.

كانت هناك فجوات فى رواياتهم، فنحن لا نعرف شيئًا ـ تقريبًا ـ عن حياة محمد (ﷺ) الأولى قبل أن يتلقى ما اعتقد أنه وحى من الله وهو فى عمر الأربعين. نمت أساطير دينية عن ولادة محمد (ﷺ) وطفولته وشبابه، ولكن قيمتها الرمزية تتجاوز بوضوح قيمتها التاريخية.

وتتوافر أيضا مادة تاريخية قليلة عن حياة محمد (ﷺ) السياسية الأولى فى مكة، كان فى تلك الفترة شخصية مغمورة نسبيًا، ولم يجد أحد جدوى من ملاحظة نشاطاته. مصدرنا الرئيسى للمعلومات هو القرآن الذى قرأه على العرب.

لمدة ٢٣ عامًا تقريبًا، منذ (١٣ ق. هـ/ ٦١٠م) إلى وفاته فى (١١ هـ/ ٦٣٢م)، رأى محمد (ﷺ) أنه تلقى رسالات مباشرة من الله، جُمعت فى القرآن. لم يشمل القرآن ـ بالطبع ـ رواية عن حياة محمد (ﷺ)، ونزل عليه تدريجيًا سطرًا بسطر، آية بآية، سورة بسورة. كان الوحى أحيانًا يتعامل مع حادثة معينة فى مكة أو المدينة.

أجاب الله فى القرآن على نقاد محمد (ﷺ)، حيث عرض وجهات نظرهم، وشرح بالتفصيل أهمية معركة أو صراع داخل المجتمع. كلما نزلت مجموعة من الآيات إلى محمد (ﷺ)، حفظها المسلمون عن ظهر قلب، وكتبها المتعلمون. وانتهى أول جمع رسمى للقرآن عام (٣٠ هـ/ ٦٥٠م) تقريبًا، بعد وفاة الرسول بحوالى عشرين عامًا، وحصل على وضع قانونى معترف به بين المسلمين (*).

القرآن هو كلمة الله المقدسة، ومرجعيته بقيت مطلقة، ولكن يعرف المسلمون أنه ليس من السهل دائمًا تفسيره، فقد جاءت أحكامه فى زمن مجتمع صغير، ولكن بعد قرن من وفاة النبى (ﷺ) حكم المسلمون إمبراطورية واسعة، امتدت من جبال الهيمالايا إلى جبال البيرنيه [سلسلة جبال جنوب غرب أوروبا فى إسبانيا وفرنسا]. أصبحت ظروف حياتهم مختلفة تمامًا عن حياة النبى (ﷺ) والمسلمين الأوائل، لذا كان على فهم الإسلام أن يتجدد ويتوائم. كتبت أولى المقالات فى التاريخ الإسلامى لمخاطبة الارتباكات الناشئة. كيف يمكن للمسلمين تطبيق رؤية النبى (ﷺ) وممارساته فى أزمنتهم المتتالية؟

(*) تم أول جمع مكتوب للقرآن فى خلافة أبى بكر، بعد وفاة النبى ﷺ بأقل من سنتين، وذكر الكاتبة أن ذلك الجمع حصل على وضع قانونى بين المسلمين، يأتى من خلفية دراستها لمسألة أى أسفار الكتاب المقدس اعتبرها اليهود والمسيحيون قانونية، وأى أسفار استبعدوها، أو اختلفوا عليها.

حاول كتاب السيرة الأوائل عند روايتهم قصة حياته، أن يفسروا بعض آيات أو فقرات القرآن بتناول السياق التاريخى لنزول الوحى بها. بمعرفة أسباب نزول تعليم قرآنى معين، يمكن للفقهاء قياس ماذا عليهم أن يفعلوا فى أزمنتهم المتعاقبة. اعتقد هؤلاء الكتاب والمفكرون أن معرفة كفاح النبى (ﷺ) لجعل كلمة الله مسموعة فى القرن الأول هجريًا / السابع ميلاديًا، تساعدهم على احتفاظهم بهذه الروح نفسها فى كفاحهم الشخصى، فى أى زمان ومكان.

منذ البداية، لم تكن الكتابة عن النبى محمد (ﷺ) مجرد حرفة تاريخية أو أثرية، واستمرت كذلك حتى اليوم. بنى بعض الأصوليين المسلمين أفكارهم القتالية على حياة محمد (ﷺ)، حيث اعتقد بعض المتطرفين المسلمين أنه سوف يغفر ويعجب بفظائعهم، ويشعر المسلمون الآخرون بالرعب من ادعاءاتهم هذه، ويشيرون إلى التعددية الواسعة فى القرآن والتى تدين العنف، وترى أن كل الأديان الراشدة نبعت من إله واحد.

ولدينا فى الثقافة الغربية تاريخ طويل من الرعب من الإسلام (إسلاموفوبيا) يرجع لأيام الصليبيين. فقدصمم رهبان مسيحيون من أوروبا فى القرن الثانى عشر على أن الإسلام دين عنف انتشر بالسيف، وأن محمدًا (ﷺ) كان دجالاً فرض دينه على العالم الرافض بقوة السلاح، وكانوا يسمونه فاسقًا ومنحرفًا جنسيًا. أصبحت هذه القصة المشوهة عن حياة النبى (ﷺ) واحدة من الصور النمطية المقبولة فى الغرب، وكان من الصعب على الغربيين رؤية محمد (ﷺ) فى ضوء أكثر موضوعية. ومنذ تدمير مبنى مركز التجارة العالمى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، استمر أعضاء من اليمين المسيحى فى الولايات المتحدة وبعض قطاعات وسائل الإعلام الغربية، فى هذا العداء التقليدى، مدعين أنه مدمن للحرب بطريقة لا يمكن شفاؤها، وبعضهم تمادى وادعى أنه كان إرهابيًا ومحبًا للأطفال جنسيًا.

لا يمكننا أن نتحمل إطلاق العنان لهذا النوع من التعصب الأعمى؛ لأننا بذلك نقدم هدية للمتعصبين الذين يستخدمون هذه الأقاويل لإثبات أن الغرب فى حرب صليبية جديدة ضد العالم الإسلامى. لم يكن محمد (ﷺ) قط رجل عنف، لا بد أن نقترب من حياته بطريقة متوازنة حتى نستطيع تقدير إنجازاته المعتبرة. إن تكريس هذا

الإجحاف غير الدقيق يدمر التسامح والتحرر والعاطفة التى يفترض أنها تشخص الحضارة الغربية.

لقد اقتنعت بهذا منذ خمس عشرة سنة ماضية بعد فتوى آية الله الخمينى بقتل سلمان رشدى وناشريه، بسبب ما رأى أنه تجديف على محمد (ﷺ) فى كتابه: آيات شيطانية. لقد اشمأززت من هذه الفتوى، واعتقدت أنه من حق رشدى أن ينشر ما يختاره، ولكننى كنت منزعجة من طريقة محاولة بعض مساندى حرية رشدى تحويل القضية من شجب الفتوى إلى إدانة للإسلام نفسه، لا تقوم على حقائق. يبدو أنه من الخطأ الدفاع عن مبدأ ليبرالى بإحياء تعصب القرون الوسطى، وبدا أننا لم نتعلم شيئًا من مأساة ثلاثينيات القرن العشرين عندما مكن هذا النوع من التعصب هتلر أن يقتل ٦ ملايين يهودى، ولكنى أدركت أن كثيرًا من الغربيين لم تكن عندهم فرصة لمراجعة انطباعهم عن محمد (ﷺ)، لذلك قررت أن أكتب رواية شعبية مبسطة عن حياته، لتحدى وجهة النظر [الغربية] الراسخة عنه. كانت النتيجة هى كتاب «محمد (ﷺ): سيرة النبى»، الذى تم نشره للمرة الأولى فى ١٩٩١م. ولكن على أثر ١١ سبتمبر، فإننا نحتاج للتركيز على جوانب أخرى من حياة محمد (ﷺ)، لذلك فإن هذا كتاب جديد تمامًا ومختلف كلية، أرجو أن يتحدث مباشرة عن الحقائق المرعبة لعالم ما بعد ١١ سبتمبر.

فى شخصية محمد (ﷺ) النموذجية، دروس مهمة، ليس فقط للمسلمين، ولكن أيضًا للغربيين، حيث كانت حياته كلها جهادًا كما سوف نرى، وهذه الكلمة لا تعنى الحرب المقدسة، ولكنها تعنى كفاحًا. كدح محمد (ﷺ) ـ بكل معانى الكلمة ـ ليجلب السلام على العرب الذين مزقتهم الحروب، ونحن نحتاج لمن هم مستعدون لعمل ذلك اليوم. كانت حياته حملة لا تكل ضد الطمع والظلم والتكبر. لقد أدرك أن العرب فى مفترق طرق وأن طريقة التفكير السابقة لم تعد تنفع، لذلك بذل نفسه فى جهاد مبتكر لينشئ حلاً جديدًا تمامًا. لقد دخلنا تقويمًا تاريخيًا جديدًا فى ١١ سبتمبر، ولا بد أن نكافح بمستوى مماثل لتطوير وجهة نظر مختلفة.

من الغرابة أن الأحداث التى جرت فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع، بهـا الكثـير الـذى نتـعلم منه كـيف نواجـه الأحـداث التى تجرى فى وقـتنا هذا، وأهميتها التأسيسية، أكثر كثيرًا من التعليقات الصوتية للسياسيين.

لم يحاول محمد (ﷺ) أن يفرض معتقدًا دينيًا تقليديًا - إنه لم يكن مسرفًا فى الاهتمام بما وراء الطبيعة [الميتافيزيقا] - ولكن اهتمامه الأكبر كان تغيير قلوب وعقول الناس. كان يطلق على الروح السائدة فى ذلك الوقت الجاهلية. عادة ما فهم المسلمون مقصوده بأنه «زمن الجهل» وهى فترة ما قبل الإسلام فى شبه الجزيرة العربية، ولكن كما أظهرت أبحاث حديثة، محمد (ﷺ) لم يستخدم لفظ الجاهلية ليشير إلى زمن تاريخى، وإنما إلى حالة من العقل التى تسبب العنف والإرهاب، فى القرن السابع فى الجزيرة العربية. إنى أحاجج أن هناك دليلاً كبيرًا على أن الجاهلية تعيش فى الغرب اليوم، كما تعيش فى العالم الإسلامى.

من المفارقات أن أصبح محمد (ﷺ) شخصية مجاوزة للزمان؛ لأنه كان مرتبطًا جذريًا بزمنه. لا يمكننا فهم إنجازاته إذا لم نقدر ما كان يعمل ضده. وحتى يمكننا فهم ما يمكن أن يقدمه لمأزقنا، لا بد أن ندخل العالم المأساوى الذى جعله نبيًا منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وهو على قمة جبل خارج المدينة المقدسة مكة.

* * *